الإشكالية الثقافية لخطاب ما بعد الكولونيالية

للمؤلف الدكتور محمد كريم الساعدي

في ظل الصراع التاريخي المستمر ما بين الشرق والغرب للسيطرة على مركز الحضارة العالمية وإخضاعها لأحد الطرفين ،حيث تبدلت في هذا الصراع أدوار التفوق والسيطرة في حقب زمنية مختلفة بين الاتجاهين كان الشرق فيها ند قوياً للغرب ، الذي شعر بضرورة حشد كل طاقاته الفكرية والثقافية والعلمية لتأسيس رؤية جديدة للتغلب على الآخر الشرقي ، لذا عمل العقل الغربي على تأسيس حملات استكشافية (علمية وثقافية واقتصادية ودينية وغيرها) أراد من خلالها دراسة مواطن القوة والضعف عند الشعوب الأخرى وبخاصة الشرقية ، أطلق عليها الحملات الكولونيالية غرضها السيطرة والتمدد على حساب الآخر الذي يشكل خطراً على المنظومة الثقافية الغربية صاحبة التفوق المعرفي والفكري والحضاري على العالم من وجهة النظر الغربية .

ان هذه النظرة الغربية بالتفوق لم تأتي بالصدفة بل استندت الى أراء فلاسفة ومفكري الغرب الذين صنفوا الشعوب والحضارات الى أعراق وأجناس وألوان والى أول وثاني وثالث ،والى مركز وهامش ومتحضر وبدائي...الخ ، لذا يجب وفق هذه النظرة الغربية إعادة صياغة كل ما هو خارج الحضارة الغربية من جديد ثقافيا واقتصاديا و سياسيا وفق هذه المنظومة المعرفية التي أسس لها العقل الغربي ووضعها في أعلى السلم الإنساني وعدها مركزاً للحضارة والتقدم عالمياً . حيث بدأت هذه النظرة

تطبق عملياً من خلال السيطرة العسكرية وإخضاع شعوب العالم التي تقع خارج حدود المركز الغربي الى هيمنة صارمة بمختلف أشكالها ومنها الهيمنة الثقافية التي سعى لفرضها وإحلالها مكان الثقافات المحلية في مناطق العالم الأخرى ، وبذلك يكون الغرب الأبيض قد خلق ثقافة جديدة لتلك الشعوب المختلفة عنه باللون تقوم على أساس التبعية للمستعِمر المنتصر وتوثيق أواصر ثقافته في داخل البنى الاجتماعية وتثبيتها من خلال نخب أنتجها المستعِمر ثقافياً من أبناء الشعوب الأخرى وجعلها الواجهة الجديدة الممثلة لثقافاته في خارج المراكز الغربية، وعلى هذا النحو " تشكلت حياة ما يزيد على ثلاثة أرباع شعوب العالم اليوم ، من خلال الخبرة الكولونيالية . وقد يكون من اليسير إدراك مدى أهمية هذه المسألة في المجالات السياسية والاقتصادية ، لكن تأثيرها العام على أطر إدراك الشعوب المعاصرة عادةً ما يكون أقل وضوحاً " مما جعل المرجع الثقافي لهذه الشعوب يقع في إشكالية الأصل المغيب والبديل المفروض الذي سوق في صورة الخطاب الثقافي الكولونيالي الغربي وسلطته صاحبة الإمكانيات الضخمة التي وظفت لهذا الخطاب ، الذي تم تثبيت نعوت دونية فيه لثقافات الشعوب المستعَمرة وعاداتها وتقاليده ومنها البدائية والهمجية وغيرها وسوقها في المخيال الغربي الشعبي ليبرر أسباب استعماره لتلك الشعوب.

في المقابل شعرت الشعوب المستعَمرة خطورة الهيمنة الكولونيالية ومن محاولاتها التدمير الثقافات و العادات والتقاليد واستغلال الثروات بحجة الحضارة ، لذا بدأت سلسلة طويلة من النضال والمقاومة في مختلف المجالات ومنها المجال الثقافي ، حيث تشكل خطاباً نقيضاً في داخل الغرب بعقول النخب الزائرة من أبناء الشعوب التي وقعت تحت الاستعمار ،الذين عاشوا في الدول الغربية ، أطلق عليه (خطاب ما بعد الكولونيالية) مستنطقاً خطابات الرفض للاستعمار في النتاجات الأدبية في البلدان المستعَمرة كاشفاً عن مدى حجم التأثير الذي خلفه المستعِمر في الثقافات الأخرى .

لقد نشطت دراسات ما بعد الكولونيالية في المجال الثقافي عموماً وفي المجال الأدبي خصوصاً مثل (الرواية والقصة والشعر) ، وكذلك عد خطاب (ما بعد الكولونيالية) على مستوى التنظير النقدي جزءاً من النقد الثقافي الذي توسع في هذه الدراسات على مجالات فكرية عديدة على المستوى العالمي في السياسية والاقتصاد والاجتماع وغيرها من المجالات ، لكن هذه الدراسات بقيت محدودة في مجال الفنون المسرحية وخصوصاً على مستوى العروض المسرحية ، على الرغم من أن للمسرح دور مهم في مجابهة الخطاب الثقافي الكولونيالي والسعي لتفكيك أطروحته من خلال تقديم عدد من العروض المسرحية في البلدان التي وقعت تحت الاستعمار أو حتى في داخل الدول المستعِمرة. بالإضافة الى محدودية هذه الدراسات** في مجال الفنون المسرحية ، فهي لم تناقش ظاهرة التأثير الثقافي للمستعِمر في الوطن العربي ، هو محور هذا البحث، بل ركزت على مناطق أخرى في العالم قدمت فيها مسرحيات صنفت تحت دراما ما بعد الكولونيالية ، وهي " مسرحيات من استراليا، وكندا والهند وايرلندا ونيوزلندا ودول مختلفة من أفريقيا ، وأجزاء من جنوب شرق أسيا ، وجزر الكاريبي" ، على الرغم من أن الوطن العربي تعرض للاستعمار القديم والحديث ومرت على أرضه العديد من الدول الاستعمارية ومنها (بريطانيا وفرنسا وايطاليا والكيان الصهيوني الذي لا يزال يحتل دولة فلسطين ، وحديثاً الاحتلال الأمريكي

البريطاني للعراق) ، حيث عملت الدول الاستعمارية على محاولة تغيير الكثير من ملامح الثقافة العربية والتأثير على البنى الفكرية في المجتمعات العربية . لذا يجد الكاتب من الضروري البحث في إشكالية الخطاب ما بعد الكولـــونيالي في النتاج الثقافي ، لدراسة مدى تأثير الاستعمار وخطابه الكولونيالي لممتد في الساحة الثقافية العربية منذ زمن طويل وما يزال مستمراً الى الآن في محاولاته لخلق تحولات على المشهد الثقـــافي العربي وخصوصاً بعد ان عاد الى الأرض العربية من خلال الاحتلال المباشر للعراق وسعيه لتكوين بناء صورة جديدة للعرب تحت مسمى (شرق أوسط جديد) وما خلقه من إرباكات في الهوية الثقافية العربية ، وكيفية مواجهة هذا الـــخطاب والتعامل معه لأجل كشفه وتفكيكه من خلال خطاب ثقافي عربي يدخل فيه المسرح كأداة من أدوات المواجهة الثقافية والفكرية المضادة لخطاب المستعِمر الكولونيالي وذلك من خلال مفصل مهم من مفاصل الثقافة العراقية الأ وهو المسرح .

يتكون الكتاب من اربعة فصول الفصل الأول: نظرية ما بعد الكولونيالية (تفكيك الخطاب الثقافي الكولونيالي) وهي (المرجعيات الفكرية والثقافية لنظرية ما بعد الكولونيالية) الفصل الثاني(خطاب ما بعد الكولونيالية في المسرح العالمي والعربي) ١- تفكيك الخطاب الغربي ودلالاته الكولونيالية و ٢- توظيف الخطاب ما بعد الكولونيالية في المسرح عالمياً وعربياً والفصل الثالث (خطاب ما بعد الكولونيالية في العرض المسرحي) والفصل الرابع : تطبيقات اجرائية: في إشكالية خطاب ما بعد الكولونيالية وجدلية الضد الثقافي لأفعال الكولونيالية الجديدة في المسرح ، هذا الكتاب صدر ب ٢٧٠ صفحة عن دار (صفحات) في سوريا و(دار الآداب والفنون) في العراق سنة ٢٠١٦.